النسقية الأسطورية للخصوبة في الشعر الجاهلي-النخيل انموذجا-

The Mythic Structure of Fertility in Pre-Islamic Poetry

- The Palm Tree as a Model-

شيباني دلال[1]، جمال مباركي[2]

[1] جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، dalal2015alg@mail.com

[2]جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، djamel.mebarki@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2025/05/15 تاريخ القبول: 2025/11/01 تاريخ النشر: 2025/11/01

الملخص:

إن الحضورالنسقي للنخيل في النص الشعري يحمل دلالات ترتبط مباشرة بالأصل الأسطوري له ورموزه التي تحيل إلى مبدأ الخصوبة وعلامات الأمومة والحياة لخلق كثافة الخصب في تجربة شعرية تستوعبها المقدسات الخارقة متحدة بصيغة إلهية نظرا لما تهبه من خيروعطاء لمواجهة أخطار العقم والتحقير.

الكلمات المفتاحية:

المقدس؛الأسطورة؛النخيل؛الخصوبة؛الشعر.الجاهلي.

Abstract:

The systemic presence of the palm tree in pre-Islamic poetry carries symbolic weight rooted in its mythological origins. It signifies concepts intrinsically tied to fertility, manifestations of motherhood,to the palm tree assumes a sacred dimension, associated with divine forces because of what it represents:abundance, generosity, pride, strength, and prosperityas a symbol of resistance against infertility.

Key words: Myth؛sacred ؛ the palm tree ؛fertility ؛pre-islamic era**.**

المؤلف المرسل: دلال شيباني، **الإيميل:** dalal2015alg@mail.com

1. مقدمة:

إن الأسطورة العربية الممتدة عبر ثقافات الشعوب وحضاراتهم تحمل رموزا ودلالات قوية المعنى معادلة موضوعيا للفكر العميق و المقدس الذي أصبح الشاعر الجاهلي يعبر من خلاله ويتوجه به في خطابه الشعري.

وتعد النخيل من أهم رموز الخصوبة والنماء التي يتطلع إليها الشاعر الجاهلي ويضمنها أنساقا ثقافية وطاقات مخاتلة يبني بها ومن خلالها نصه الشعري بالتوازي مع أسطورته المقدسة، ولهذا كان لابد أن نتساءل عن نظام هذه الأسطورة ؟وكيف كونت نسقا في الشعر الجاهلي؟ وأيضا عن نظرة الشاعر الجاهلي وكيفية توظيفه لأسطورة النخيل الرامزة للخصوبة و الحياة في الشعر الجاهلي كفكرة تدل بصورة واضحة على كثافة وظيفة الأمومة ومبدأ الخصب التي يتمتع بها النخيل.

إذن نحن في هذه القدسية النباتية للنخيل وارتباطها بالناقة والماء وغيرها من المقدسات التي يحملها فكر الجاهلي وطقوسه وتكشف عن الدلالات المضمرة والظاهرة والتحولات الممارسة بين القدرة على الخصوبة وبعث الحياة أو إمكانيات إلحاقها بالهلاك والعقم والموت.

2-النسق الأسطوري الشعري:

شكل الشعر الجاهلي بأغراضه وموضوعاته أسطورة قائمة في حد ذاته، تخصص له طقوس معينة لأدائه ولإلقائه ونظمه والإنتقام من خلاله أو التبرك به، فاعتبر الشاعر نبيا وحكيما يلقي تعاويذ الشياطين والجن في أجود شعر العرب، وهذا التناقض الحاصل ما هو إلا خشية عقاب أو رهبة قوى خفية مسلطة بلسانها ولغتها الشعرية على من تريد له الهلاك .

ويشير (عليمات، 2009، صفحة 120،121) بأنّ الصورة الفنية في الخطاب الشعري لم تتجل فيما تضمنه من جوانب جمالية فقط بل في مضمراتها وشفراتها وطاقاتها المخاتلة في أنساق ثقافية، فيبني النص بهذا نفسه ويشكلها ضمن نظامها الرمزي.

و" النسق نظام ينطوي على استقلال ذاتي؛ ما يشكل كلا موحدا، ويعمل على انقياد عقلية المتأثر به؛ فهناك أجزاء للنسق مترابطة ترابطا لا يمكن الفصل بينها، وما يجدر ذكره

أن النسق لا يعمل في ذهن المتلقي إلا من خلال الشفرات التي تعمل على تحريكه" (اللويش، 2010، صفحة 128،129).

لقد كانت اللغة هي الوسيلة الأولى التي عبر بها الإنسان عن الأسطورة سواء أكانت ملاحم شعرية أو غنائية دينية أو كانت طقوس وشعائر تتلى فيها تعاويذ ومعتقدات سحرية أو مجموعة قصصية تحكى خيال الإنسان البدائي ولغته الشعرية الأولى.

فينظر لها في الأساس على أنها " نوع من اللغة الشعرية، وهي اللغة الوحيدة التي كان الإنسان يستطيع أن يعبر بها عن نفسه في المرحلة البدائية من تطور البشرية "(السيف، 2009، صفحة 31،32)

ويرى(السواح، 2001، صفحة 27) أنّ للأسطورة نسق رمزي يتشكل خلال ترابطاتها المحلية، التي تؤهلنا بعد ذلك إلى إجراء مقارناتها ذات الأبعاد المختلفة

ويشير (السماهيجي و وآخرون، 2003، صفحة 114)أنّ الأسطورة والمثل برزتا كقناع تستتر بهما الثقافة لتمرير حيلتها فتنتج أفكارهما وتعبر عن مكنوناتهما دون مؤلف وصانع يحاسب عليهما أو قيود تتحكم بهما.

وقد كانت هذه الدلالات النسقية الخفية في الأساطير القديمة العربية تركز على الجماليات الشعرية والسمات الثقافية فتصوغ بقانونها ونظامها السيادة والسلطة العليا للفكر الجاهلي ومعتقده .

فكونت " الشخصية الشعرية نسق ثقافي مترسخ ومتعزز فينا، ونحن نعيد ترسيخه وتعزيزه عبر تمثله في الخطاب وفي السلوك، وهو ما يصبغ ويميز نسقنا المهيمن، ويؤثر على كل مجالاتنا العاطفية أولا ثم العقلية خضوعا لذلك واستسلاما له.." (الغذامي، 2005، صفحة 90).

إن النسق يعمل بالتوازي مع الأسطورة وفق نظام واحد حيث يحمل في مضمراته الوجهين الذين يفسران الظاهر والمخفي، أي الاعتقاد الراسخ والسلوك الظاهر، القوة الخفية والوجه الجمالي، المقدس والواقعي، الدين المزيف والبعد الحقيقي .

ويرى(اللويش، 2010، صفحة 130) لا طالما كانت الدلالة النسقية بحاجة إلى العملية الثقافية لتظل مضمرة في الخطاب فتنسخه وتنقضه، في سلسلة العلاقات الكامنة في اللاوعي، وبهذا تهيمن الثقافة بكيانها الرمزي.

وتصاغ الممارسات والطقوس في بنية الخطاب الجاهلي ـ الشعري منه خاصة ـ بين ثقافة الذات والثقافات الأخرى المرتبطة به، وبين إنتاج المؤلف وتأويل المتلقي، وبين طقوس المجمع واللغة الشعرية المسلطة عليه .

فالأسطورة الحقيقية كما يراها (السواح، 2001، صفحة 32) لا تسلم نفسها لمستوى واحد من التفسير، لأنها تبنى على الطرح الرمزي. الذي يخترق شيفرات وعلامات ويفسر بأدوات ثقافية العمق الأسطوري المنبثق منه والنظام الكلي القائم في مركزية نسقه الفعال المنتج المضمر في ثقافته ولغته وشعره وخصوصية شخصيته .

ولما كان "الشعر هو السليل المباشر للأسطورة وابنها الشرعي، وقد شق لنفسه طريقا مستقلا بعد أن أتقن عن الأسطورة ذلك التناوب بين التصريح والتلميح، بين الدلالة والإشارة فالقاسم المشترك بينهما هو الرمز والإيحاء واستخدام الظلال السحرية للغة"(السيف، 2009، صفحة 31).

فارتبط بذلك النسق بالأسطورة في الخطاب الشعري كمنظومة وأسلوب يمتد عبر الأزمان والأمكنة فينعكس في السلوك والطقوس والأفكار والممارسات اليومية، كلغز في الحياة يحتاج إلى تفسير وتفكيك بنياته وإنتاج أنساقه المضمرة ومقاصده الكبرى ومساءلته الخارقة للكون والدين والمجتمع والثقافة والوجود والإنسان كمؤثر ومتأثر، منتج لهذه الأسطورة أو متفاعل مع أنساقها ومضمراتها .

وبهدا نجد(السواح، 2001، صفحة 27) يقر بأن النص الأسطوري لا يكسب معناه و مغزاه إلا بالعودة به إلى نسقه الميثيولوجي الثقافي، الذي تشابك في إنتاجه مع مجموعة الأساطير الأخرى في نظام ونسق واحد .

وكما كانت المرأة رمزا للخصب والحياة، والنخلة معادلة لها، كذلك كانت الناقة والفرس وبعض الحيوانات الأخرى ترمز لقوة الإخصاب، والنخلة معادل موضوعي لها فتتكرر لنا عناصر المشابهة بين هاته الحيوانات والنخلة المتمثلة بصفة أساسية وعامة في قوة الإخصاب، إلا أن هذا الخصب يختلف حسب طبيعة النسق واتصال الصورة الأسطورية الشعرية به.

3. النسقية الأسطورية لخصوبة النخلة /الناقة :

إن الحياة الرعوية في شبه جزيرة العرب تفرض على العربي تقدير الناقة ، فهي تعتمد بدرجة كبيرة و بالغة على هذا الحيوان الذي يشكل نسقا حياتيا وفكريا وأسطوريا عميق الجذور حتى أصبح الجاهلي يتوجه إليه في آماله ورحلاته ودعواته. ويرى (العالم، دس، صفحة 17) الإطالة في وصف أعضائه ماهي إلا تبجيلا وتقديسا له ؛ ولأن رحلات الصحراء المتوالية كانت في معظمها تعتمد على الناقة لذا ترددت صورتها في شعر الجاهليين، فأطالوا في وصف ذنبها ورائحتها وهزالها وطولها وضخامتها وصبرها وثباتها وبقية أعضائها، وهو الذي جمع بين الطرفين المشابهين، فعطاء الممدوح تمثل في فكر شعراء الجاهلية بأنه النوق السمينة التي تشبه النخل المثمر.

يقول الأعشى (الأعشى، دس، صفحة 71):

هو الواهب المائة المصطفاة كالنخل طاف بها المجترم

فممدوح الأعشى يهب المائة المصطفاة من الإبل كأنها النخل يطوف بها المجتي دلالة على جمع الثمار الكثيرة، فعنصر المشابهة هنا (بين النوق والنخل) هو الإخصاب. وقد كرر الشاعر نفس الصورة أي الخصوبة بين النوق والنخلة في غير بيت، يقول (الأعشى، دس، صفحة 53):

هو الواهب المائة المصطفاة كالنخل زينها بالرجن

وفي بيت آخر يكرر الأعشى نفس الصورة حيث يصف كرم الممدوح بأنه يهب السمان من الإبل الضخام ويشبهها بالنخل، تحنو على صغارها الأطفال. يقول (الأعشى، دس، صفحة 41):

يهب الجلة الجراجر كالبستان تحنو على صغارها لدردق الأطفال

وأيضا يستمر الأعشى في وصف ممدوحه بنفس الصورة حيث يشبه هباته بالإبل البيضاء الضخمة كأنها النخيل، يقول (الأعشى، دس، صفحة 255):

ترى الأدم كالجبار والجرد كالقنا موهبة من طارف ومتلد

يضمر ارتباط الناقة بالنخيل في بنيتة الصورة المثالية للحيوان التي استمدها من قداسته الإلهية أو ما يتوسط له في عقيدتهم الدينية والكونية، الفكرة المثالية وضرورتها لثبات عطاء وكرم وهبة المقدس الأول/الإله، فلا يكون حضور هذين المقدسين النوق/ النخيل

شعريا إلا فعلا كاملا وصفة مطلقة، ونسقا ثابتا يمثل الوفرة المقدسة من الإبل السليمة الضخمة الخالية من العيوب والنخيل الكثيرة الثمار، وهي صورة رمزية لقيمة مطلقة يهبها الممدوح ليصنع به حياة وحقيقة معززة في نفس الآخر .

وأما ارتباط الناقة بالحدائق عند طرفة بن العبد فهو ارتباط تتوافر فيه عناصر الخصب والحياة. يقول الشاعر (العبد، 2000، صفحة 43):

تربعت القفين في الشول ترتعي حدائق مولى الأسرة أغيد

والأودية أكثر الأمكنة خصبا، وهي مانحة الشبع والسمنة والحياة لما يؤمها من نوق.

يقول أبو دؤاد الإيادي (الإيادي، 2010، صفحة 167):

وإذا ما فجئتها بطن غيب قلت: نخل قد حان منها صرام

فالنوق في ذهن الشاعر نخيلا قد حان قطافها وهذه الصورة المثمرة رمزا واضحا وجليا للخصوبة، يقول الأعشى (الأعشى، الديوان، دس، صفحة 151):

كأن على أنسائها عذق خصبة تدلي من الكافور غير مكمم

وما هذا التضخم في الارتباط النسقي لرمزية الخصب للناقة والنخيل توحدا مع الذات المقدسة القادرة على خلق سلطة كونية يؤمن بها الشاعر، ويقدسها كسر عميق في استمرار حياته، وسبلا لوجوده .وقد اعتقد أحد الباحثين أنها إشارات جنسية ترمز إلى الخصب.

وهذا الوجود المقصود ليس وجود الذات الشاعرة فقط بل وجود الفرد والقبيلة والكون واستمرار هذا الجنس البشري على مر العصور.

ويشير (العالم، دس، صفحة 18) إلى أن هذه الإمدادات الأسطورية في المخيال الثقافي العربي لرمزية الخصب تمثلت في إشارة نسقية أخرى هي عرق الناقة التي تشبه رائحة وعاء طلع النخلة .

فارتباط النخلة بالناقة /رمزا للخصوبة يؤهلها لأن تكون أيضا رمزا للأمومة.

ويرى (ناصف، 1981، الصفحات 98-99) أنه لو نظرنا إلى ما تقدمه النخلة للعربي بالفعل، لوجدنا أنها تقدم له كل ما تقدمه الأم من ثمار (طعام)، ظل (أغصان) حتى أنها محل الإله وإله في الوقت نفسه ، فهي تمثل الملجأ والنجاة، وهذا بالفعل ما تمثله الأم، وكما ذكرنا سابقا من أن الخصوبة مرتبطة بالأمومة أو هما شيئا واحد بالنسبة لارتباط النخلة بالناقة يقول في ذلك مصطفى ناصف:" وإصلاح النخلة وتلقيحها جزء لا يتجزأ من

الناقة... قد كانت هذه الناقة أشبه الأشياء بالأمومة القوية، ولذلك اقترنت بالنخلة في أذهان العرب. فأمومة الناقة ـ إن صحت هذه الفكرة ـ أمومة صابرة قادرة راغبة ـ بطبعها ـ في استمرار الحياة.

وتلقيح الأنثى يؤهلها لتكون حاملة عنصر وصفة الأمومة، وروي أنه "إذا قاربت بين ذكران النخل وإناثها فإنه يكثر حملها، لأنها تستأنس بالمجاورة، وإذا قطع إلفها من الذكران فلا تحمل شيئا لفراقها، وإذا غرست الذكران وسط الإناث فهبت الريح فخالطت الإناث رائحة طلع الذكر حملت من تلك الرائحة كل أنثى حوله" (القزويني، 1892، صفحة 92).

صورة النخلة الملقحة أو خصوبتها بصفة عامة تضفي خصوبة على الناقة المشبهة أو المقترنة بها في الصورة الشعرية، فتولد من الحياة حياة وتستوجب لذلك حضور نسقين مقدسين يفعل أحدها بالآخر ويتركز عليه ويحن إليه .

يقول المتلمس الضبعي (الضبعي، 1970، صفحة 85):

حنت إلى نخلة القصوى فقلت لها بسل عليك ألا تلك الدهاريس

فهي أي الناقة تحن إلى الأمكنة التي يتكاثر فيها النخيل، كمكان النخلة القصوى (بأرض العراق)، فالمتلمس وناقته لا يتطلعان إلى نفس المكان، إذ أن كل منهما له حاجة مختلفة، فالمتلمس يتطلع إلى العراق حيث أحبابه وأهل مودته، والناقة تتطلع إلى العراق حيث يوافق هواها وأصلها ومنبتها الأول.

ومن صور الخصب أيضا المتعلقة بنسق الناقة/ النخلة هو تشبيه بين صورتي الناقة والحمار. يقول أوس بن حجر (حجر، 1979، صفحة 18):

عيرانة كأتان الضحل صلبها جرم السوادي ضوه بمرضاح

فناقة أوس بن حجر الصلبة تشبيها بعير الوحش والتي تعلف التمر مما كان هذا سببا في قوتها وصلابتها وكثرة عددها. كما ربط أيضا شاعر الجاهلية بين الناقة والنعامة تشبيها بالنخلة.

يقول ثعلبة بن صعير المازني (الضبي، دس، صفحة 127):

يبري لرائحة يساقط ريشها مر النجاء سقاط ليف الآبر

ناقة ثعلبة تمضي مسرعة كالنعامة إلى بيضها، ثم تشتد في عدوها إذا عارضها الظليم، فهي لا تكل ولا تألو من العدو، وقد شبه الشاعر تساقط ريش النعامة من شدة الجري بتساقط ليف

النخلة ورميه من قبل الآبر، وهذه الكلمة "الآبر" تدل بصورة واضحة على كثافة الخصوبة التي تتمتع بها النخلة كذلك بيض النعامة هو ما يقابلها من خصوبة للنعامة أي المشبه " الناقة"(النخلة / الآبر) (الناقة/ النعامة/ البيض).

إن إرتباط صورة (النخلة / الناقة) كنسقين أسطوريين مقدسين بالحمار الوحشي أو ببيض النعام يشكل تعاظما عجائبيا في الفكر الجاهلي المقدس، يولد في نفس الشاعر فكرة ثقافية تحقق جوهر الحياة القائم على الخصوصية الثابتة الدائمة باجتماع مؤشرات نسقية لعدة مقدسات في بيت واحد تعين بعضها البعض على دعم وظيفة الخصوبة التي تتميز بها وتأمل منها .

4-الضدية النسقية لخصوبة النخيل / الموت والحريق والعقم:

عمد الشاعر الجاهلي الى تدقيق وتقدير كل عضو من أعضاء الناقة حتى أن علقمة الفحل برز في شعره (شعر ذنبها) فقصد تشبيهها بعناقيد النخل المرطبة.

يقول علقمة الفحل (الفحل، 1935، صفحة 23):

كأن بحاذيها إذا ما تشذرت عثاكيل عذق من سميحة مرطب

وهذا التشبيه الذي يصور ذنب الناقة في كثرة فروعه وغزارة شعره بعناقيد النخل المرطبة. ما هو إلا أحد رموز الخصب التي يتبع بها التشبيه بين الناقة والنخلة.

ولكن عندما تتحول هذه الصورة الرامزة للحياة والخصوبة (في حقيقتها) إلى صورة أخرى معاكسة ومغايرة لهذا التشبيه ويكون هنا النسق المضاد للحياة والخصب هو الموت والعقم.

يقول الأعشى (الأعشى، الديوان، دس، صفحة 137):

تلوي بعذق خصاب كلما خطرت عن فرج معقومة لم تتبع ربعا

من خلال هذا البيت نلاحظ التشابه بين ذنب الناقة وعذق النخلة ولكنها ليس صورة خصبة كما كانت في شعر علقمة الفحل، بل كلها إشارات وعلامات للعقم والجدب، وهي الدلالة الغير معروفة والغير متوقعة من هذا الارتباط ولكنها المحملة في ذهنية الشاعر الأعشى، حتى لو كان البيت كله إشارات جنسية مثل: فرح، عذق، خصاب..إلا أن هناك كلمة واحدة تغير المعنى الكلي للبيت وتظهر الدلالة النسقية بصورة واضحة.

يقول إسماعيل أحمد العالم في كتابه "الشعر العربي": " وإذا وصف شاعر الجاهلية ذنب الناقة، وشبهه بعذق النخلة، رمز إلى الخصب الجنسي، فالذنب يرتبط جنسيا بالناقة وهو

الذي يستر عورتها، فالإخصاب إذن هو الذي جمع بين الطرفين المتشابهين" (العالم، دس، صفحة 18).

تبقى هذه هي الصورة الظاهرية فقط، أما الصورة الأخرى الباطنية هي العقم أو العقر الذي اتصفت به الناقة وليس الخصوبة، وهذا على حسب معنى البيت.

فهذه الناقة تضرب بذنبها ذات اليمين وذات الشمال فيكشف عن فرج عاقر عقيم ليس وراءها ولد تحن إليه فيعوقها عن الإقدام، فهي لا تقتنى للإنتاج والنسل، وإنما تخصص للرحلة.

ويشير (العالم، دس، صفحة 19) أنه كما تراءى لشاعر الجاهلية عنصر الخصب وعنصر الحياة في نسقي الناقة والنخلة تراءى له أيضا عناصر الموت والقحط والجدب فيهما. فالناقة الهزيلة تمثلها نخلة أصابها التحريق إذا صير قائمها صريعا، ولونها الأحمر والأصفر أسود فاحما.

قال الأعشى (الأعشى، الديوان، دس، صفحة 279):

يوم حجر بما أزل إليكم إذ تذكى في حافتيه الضراما

جار فيه نافى العقاب فأضحى آئد النخل يفضح الجرامـــا

فتراها كالخشن تسفحها النيران سودا مصرعا وقياما

يمضي الشاعر في هذه الأبيات في تعديد نعم قومه على بني عبدان فيقول:" أتنسون يوم(حجر) وما أسدينا إليكم فيه من عون، إذ تلتهم النيران الوادي من جانبيه، وقد فاجأكم العدو، منه الثمار، فتراه وقد لفحته النيران بين قائم ومصرع، أسود كالنوق الهزيلة العجاف" (الأعشى، الديوان، دس، صفحة 278).

تتضح الدلالة المعاكسة مرة أخرى فتصبح الصورة (الناقة/ النخلة) رمزا للجدب والموت عن طريق الحرق الذي أصاب النخيل، فالنخلة المقدسة رمز الحياة والعطاء تتحول إلى حطام وتفسد ثمارها، فتخلع عنها القداسة و تشوه.

5-نسقية الخصوبة الأسطورية للنخيل/الماء :

ولما كانت النخيل لا تعيش إلا بالماء وفي الماء، كان ارتباطهما شيئا ضروريا في الشعر الجاهلي وفي الحياة العربية الصحراوية رمزا للخصب وتوافر الحياة.

فامرؤ القيس يشده نخيل ابن يامن بالبحرين التي تكرع من نهر الصفا والمشقرة أو المكرعات من نخيل ابن يامن.

يقول إمرؤ القيس (القيس، 2004، صفحة 93) :

أو المكوعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائي يلين المشعرا

ربط الشاعر بين النخلة والناقة عن طريق المرأة ، وحرص على أن يجعل النخيل مرتويات مكرعات ، وهذا أطيب لثمرها ونموها ، وقد نسب هذه النخيل المفروسة في الماء إلى ابن يامن ، وآل يمين قوم من هجر لهم نخيل وسفن ، وهجر من أكثر البلاد نخيلا فلذالك خص التشبيه بنخلها .

ولبيد بن ربيعة يقف عند نخل يكرع من ماء نهر صفا المقشر بالبحرين أيضا يقول (ربيعة، الديوان، 1993، صفحة 181):

نخل كوارع في خليج محلم حملت فمنها موقر مكموم

سحق يمتعها الصفا و سريه عم نواعم بينهن كروم

يقول لبيد بن ربيعة (ربيعة، الديوان، 1993، الصفحات 80-81):

كأن أضعانهن في الصبح غادية طلع السلائل وسط الروض أو عشر

أو بارد الصيف مسحور، مزارعه سود الذوائب مما متعت هجر

ويتضح هنا أن الجاهلي ليس من يحي النخيل بل الماء أو قوته ووجوده هو من يحييها، وأنه نعجب ومبهور بقدرتها العجيبة على النمو والإثمار، وكأنها تكافح لتطول تصبر لتثمر، تماما كتلك المرأة على الهودج، الحاملة الهموم، المحملة بالمجهول، تحيط بالغموض ويحيط بها، إلى أي أرض هي ذاهبة؟ وأي أرض تركت وراءها؟ إنها محمية وكأن ذلك الماء أحيا شيئا في الناقة كما أحيا شيئا في النخيل المغروسة فسارت آمنة لطريقها.

ويلاحظ (سليمان، 2005، صفحة 153) أنّ الشاعر لبيد بن ربيعة قد حدد مكان النخيل " هجر" فهي منطقة كثيرة المياه في شرق الجزيرة ونخلها من الجعل وهي قصار النخل ومنه العيدان وهي طوال النخل، فهي مغمورة في الماء أي أن هذه النخل تشوب الهوادج بالمكرعات وتكون نخلا سحوقا أي طويلة وذلك يرجع إلى مكان غرسها الذي يشتهر بالماء "محلم "وهو نهر بالبحرين.

وتأتي صورة الساقية وأشجار النخيل واضحة عند زهير بن أبي سلمى حيث يقول (سلمى، الديوان، 1988، الصفحات 73-74):

تمطو الرشاء و تجري في ثنايتها من المحالة ثقبا رائدا قلعـــــا
لها أداة و أعوان عدون لها قتب و غرب إذا أفرع انسحقـا
وخلفها سائق يحدو إذا اخشيت منه العذاب تمد الصلب والعنقا
وقابل يتغنى كلما قـــــــدرت على العراقى يداه قائما دفقـــا
يحيل في جدول تجلو صفادعه حب والجوارى ترى في مائة نطقا
يخرجن من شربات ماؤها طحل على الجذوع يفن الغم و الفرقـا

يصور زهير بن أبي سلمى في هذه الأبيات انفتاح نسق النخلة على الفكرة المائية المرتبطة بقيمة الخصب و النماء متفوق هنا إيحاءات و رمزيات الخصوبة النسقية للنخلة فالشاعر يصور وفرة الماء في جدول لا يجف وارتواء النخلة منه ولو لا ذلك لم تكن فيه الضفادع ، حيث أن تلك الأخيرة لكثرة الماء صعدت على جذوع النخل مخافة الغرق وهذه النسقية (الماء/ النخل) المقدسة تحمل رموزا لخصوبة دائمة تابعة من سلطة المكان حيث يتوفر الماء .

وبمعنى آخر هو يتنكر لحالة الجدب المكاني في قصدية واضحة لانتصار إرادة الحياة من خلال الإشارات الأسطورية الدالة على انتصار الشاعر على المكان و تحويله إلى مشهد صعود الضفادع على جذوع النخل مخافة الغرق من كثرة الماء فكان هذا الوجود الخير يشكل أرضية خصبة ابتداء من النسق المقدس / ارتواء النخلة إلى مبدأ النماء / الماء الذي لا يجف إلى رمز الخصوبة الآخر / الضفادع .

ويرى (العالم، دس، صفحة 23) أن لاشتراك الوجود الحياتي لخصوبة الماء والنخلة تأصلت النخيل في المياه، تشرب منها بلا حرك، فهي قارعة فيها، مقيمة حيث يقيم.

يقول لبيد بن ربيعة (ربيعة، الديوان، 1993، صفحة 71):

يشربن رفها عراكا غير صادرة فكلها كارع في الماء مغتمر

يستعرض الشاعر في هذا البيت الفكرة السابقة لزهير بن أبي سلمى وهي نسقية النخلة المقدسة الحية بوجود الماء، الثابتة عروقها فيه ، فكأنها تهب ـ أي النخلة ـ الحياة

المقدسة للمشهد أو الواقع أو الصورة العامة للبيئة الجاهلية والشاعر معا ومن جهة أخرى تستمدها من الماء فهي تخضع لمبدأ ذي وجهين الخصوبة التي توهب وتهب .

وربط امرؤ القيس أيضا بين البرق الذي هو علامة للمطر الذي هو الآخر علامة للخصب في حد ذاته و ارتواء النخلة مما يدل على كثرتها ونموها أي خصوبتها بصفة عامة يقول (القيس، 2004، صفحة 98):

تبصر خليلي هل ترى ضوء بارق يضيء الدجى بالليل عن سرو حميرا

أجار قسيسا فالطهاء فمسطحا وجوا فروى نخل قيسا بن شمرا

إن الماء في خدمة النخلة، يسقيها لتنمو وتثمر، فتحي به وتُحي به كل من اتخذ من ثمرها طعاما له ومن أغصانها ظلا ومكانا يحتمي به من شدة الحر، وهذا هو الشائع والظاهر والمعروف في البيئة الصحراوية الجاهلية أما أن نجد الدلالة النسقية العكسية من خلال الشعر أيضا الذي قام بتسجيلها حيث تكون النخلة هي خادمة للماء، فقد اختارها الجاهلي لتلبي احتياجاته حينما صنع من ليف لبها ـ أي النخلة ـ الأملس رشاء لإخراج الماء من بئر بعيدة القعر، وهنا يتحول النسق المضمر بشكل واضح.

يقول امرؤ القيس (القيس، 2004، صفحة 86):

ومطردا كرشاء الجرور من خلب النخلة الأجرد

ربما لو دققنا أكثر في الشعر الجاهلي لنبرز العلاقة النسقية التي تجمع الماء بالنخلة سنجد دلالة عميقة متأصلة الجذور في القدم تربط دموع الشعراء على فراق محبوباتهم بالماء الذي يسقي منه النخيل. و لنتوقف قليلا عند قدسية الماء في زمن الخلق لنلاحظ مدى الترابط بين الدموع والماء.

يقول أحد الباحثين في هذا: "عن وهب بن منبه أن أصل العيون من بكاء الأرض عند علمها بأن يخلق منها الأشقياء.. وأن ذلك من بكاء آدم بعد مفارقته الذنب، وأنبت الله من دموعه العود الرطب والزنجبيل والصندل وأنواع الطيب وبكت حواء حتى نبت من دموعها القرنفل والأقاوية ونجد الماء هنا عنصرا خالقا في شكل دموع " (عجينة، 1994، الصفحات 257-258).

فالدموع التي ذرفها الشعراء أو تحدثوا عنها على الأقل في شعرهم تكون المعاناة والألم الذي قاساه الشاعر بعد غياب محبوبته، فهو أيضا خرج من جنتها إلى عذابه، ومن

فرحته معها وبوجودها إلى حزنه ووحدته، كأنه في عقاب محتوم كما أنزل ذلك العقاب الأسطوري الأول على سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ ولكن الصورة لا تتوقف هنا، بل تكمل طريقها وتتوحد مرة أخرى مع الماء وأيضا النخلة، فإذا كانت الدموع في أحد الأساطير هي أول أشكال الماء فإن الدموع عند الجاهلي وفي أسطورته هي من دفع ذلك لسقي النخيل وكأنه يدفع الثمن باكيا متعذبا حتى تتمتع النخلة بالماء والإرواء، وكما في الأسطورة، نبت من دموع آدم وحواء أنواع الطيب والزنجبيل والقرنفل..إلخ كذلك تنبت دموع الشاعر النخلة الشجرة المقدسة في معتقداته وأفكاره وأنساقه .

الدلالة المضمرة هنا تتمثل في قوة وقدسية الدموع القادرة على الإنبات، والظاهرة تتمثل في ضعف الشاعر واحتياجه للماء الذي يسقي النخلة على عكس ما هو موجود في القديم الأسطوري، الشاعر لا يحتاج إلى الماء، بل الماء يحتاج إلى دموعه ليتشكل ويتكون فينبت ويسقي النخيل. وذهب غير شاعر جاهلي إلى ربط دلالة الماء بشجرة النخيل التي تسقي منها، وخاصة في معرض حديثه عن دموعه التي ذرفها حزنا على محبوبته كما سبق وأشرنا.

قال زهير بن أبي سلمى (سلمى، الديوان، 1988، صفحة 73):

كأن عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقى جنة سحقا

وبمثل هذا قال عبيد بن الأبرص إذ شبه دموعه المدرارة على فراق محبوبته بجدول ماء يجري في ظلال نخل. قال الشاعر (الأبرص، 1994، الصفحات 20-21):

عيناك دمعها سروب كأن شأنيهما شعيب
واهية أو معين ممعن من هضبة دونها لهوب
أو فلج ما ببطن واد للماء من تحته قسيب
أو جدول في ظلال نخل للماء من تحته سكوب

عينا لبيد بن ربيعة تذرفان الدمع باستمرار، وكأن العرقين اللذين يجري فيهما الدمع قد شعبا، ثم يشبه الشاعر دمعه بالماء الذي يجري بسرعة من الهضبة، منحدر إلى أسفل حين اللهوب (الشق بين الجبلين)، فهو- أي دمعه ـ كنهر صغير ينساب عبر واد، ثم في البيت الأخير يشبه لبيد دمعه بجدول يجري بين أشجار النخيل، و يسمع جري صوته ولو لاحظنا الإطالة التي تعمدها عبيد في وصف دموعه المنسابة ما هي إلا إشارة نسقية توحي

وترتبط بعمق أسطوري متخفي وراءها. نرى مثلا منها في شعر عبيد بن الأبرص يقول (الأبرص، 1994، صفحة 33):

تذكرتهم ما إن تجف مدامعي كأن جدول يسقي مزارع مخروب

فعبيد بن الأبرص يبكي قومه مشبها دموعه الغزيرة بجدول تنساب مياهه لتسقي الزرع وكما تمثل الخير والشر والخصب لإنسان الجاهلية في الماء والمطر، تمثل فيه الدمار والموت، وكانت النخلة كذلك تباعا، ففيها كل رموز الخصب والعطاء والحياة، فتحولت بتحول الماء إلى الموت، فتحولت بدورها إلى مصدر دمار وهلاك، فالماء اقتلعها أي هو من أتى بالموت وألحقه بها، فكانت النخلة هنا ضحية للماء.

قال امرؤ القيس (القيس، 2004، صفحة 61):

وأضحى يسح الماء عن كل فيقة يكب على الأذقان دوح الكنهبل

وتيماء لم يترك به جذع نخلة ولا أطما إلا مشيدا بجندل

وألقى ببسيان مع الليل بركة فأنزل منه العصم من كل منزل

ومعنى هذه الأبيات أن هذا السيل أو الغيث ينصب من الجبال فيقلع الشجر العظام وهذا الجبل تطاير وتناثر من رشاش هذا الغيث، فأنزل الأوعال العصم من كل موضع من هذا الجبل لهولها من وقع هطوله على الجبل وفرط انصبابه حتى أنّه ـ الغيث ـ لم يترك شيئا من جذوع النخل بقرية تيماء.

وهذا ما يهمنا كون السيل أو الغيث أو المطر الغزير أصبح لعنة تؤدي إلى الموت والدمار وأصبح يهدد حياة النخيل، بل ينتزعها من مكانها وجذورها، ويقذفها بعيدا، إنه يعتدي على الحياة بنظرة الموت فيأخذ اخضرارها ـ كدلالة لونية متجددة ـ وثمارها وأغصانها ويقدمها قرابين وأضحية لموت آخر.

لم يكن التحول الطارئ في حركية الزمن المتسارعة في هذه الأبيات من خلال السيل المنصب من الجبال والآكام المقلع الشجر العظام، فتطاير الجبل وتناثرت نزولا الأوعال العصم من كل منزل وموضع، واكتمل هذا الفعل المهول بفرط انصباب الغيث بدلالة نسقية مضادة تخضع القوى المقدسة إلى منطق الهزيمة والرضوخ لمجريات واقعه الأليم.

6-نسقية النخيل رمزا للقوة والفخر:

إن الأصل الأسطوري للنبات/ النخيل / الإله المقدس أو محله، يبعث إشارات ورموز لخلق الانسجام بين الماضي والحاضر، الذات والجماعة، الواقع والخيال في بناء تجربة شعرية تستوعب المقدسات الفكرية القديمة لبناء أرقى مظاهر الذات الإنسانية ولكن بصيغة إلهية.

يقول أحد الباحثين (العالم، دس، صفحة 26)" الرمز الشعري تركيب جامع بين الصيرورة والكينونة، صيرورة المظهر الحسي الذي يعبر الرمز الشعري عنه بالنشاط التخيلي المتمثل في الصور والإشارات المجازية وكينونة الأشياء بتسميتها على ما هي عليه بالتوغل في لبابها وأساسها الأول، فالنخلة في كينونتها تعني أنها ضرب من الشجر، لها سمات وخصائص معينة ولكن الشاعر الجاهلي استمد منها معاني وصورا ترمز إلى التعبيرات يعيها في اللاشعور، فهي ـ أي النخلة ـ عنده رمز لكرم المحتد والنسب والأصل".

وفي هذا اللاشعور يتشكل النسق المضمر/ الناقة رمز للنسب والأصل الكريم والفخر، فهو الذي ينفتح بدوره على التعدد الدلالي فتتصاعد التأويلات والقراءات لخفايا نسق النخلة المتكاملة في صورة ترتقي إلى العالم المنشود فتكسب النخيل هذه الطاقات الإيحائية بالأحقية والافتخار والنسقية ، وحتى الفوقية التي تعادل أو بمعنى آخر تضعها في واجهة واحدة مع رموزهم الأسطورية وصورهم المقدسة .

يقول زهير بن أبي سلمى (سلمى، الديوان، 1988، صفحة 87):

وهل ينبت الخطى إلا وشيحه وتغرس، إلا في منابتها، النخل

فالشاعر بحديثه عن النخلة كأنه يتحدث عن الكريم، فهو أراد أنه لا ينبت الشيء إلا جنسه، ولا تغرس النخل إلا حيث تنبت وتصلح، وكذلك لا يولد الكرام إلا في موضع كريم يليق بهم. فتقود بهذا الكرم إلى الفخر رامزة له، إذا ما امتلأت الديار بها ، فها هو الأعشى يفخر بذلك حيث يقول (الأعشى، الديوان، دس، صفحة 183):

فإن يلق قومي قومه تربينهم قتالا و أكسار الفنا و مدا عصا

ألم تر أن العرض أصبح بطنها نخيلا و زرعا نابتا و فصافصا

فالأعشى يفخر بما له و لقومه من القوة و الثروة لما يجعلنا نثير حربا حقيقية فمساكنه و قومه في وادي(العرض) مليئة بالنخيل والزرع وعلف الدواب، وهي نخيل تشرف

من بينها قصورنا الباذخة التي يقصر الطير عن بلوغ شرفاتها. وما طول هذه النخيل وكثرتها إلا قوة فيهاب منها الخصم والعدو، فهي ـ أي النخيل ـ رمز للقوة والصبر والمنعة يقول زهير بن أبي سلمى (سلمى، الديوان، 1988، صفحة 135):

حتى إذا ما التقى الجمعان و اختلفوا ضربا كنحت جذوع النخل بالسفن

وهي أداة للثراء وكثرة المال عند أبي دؤاد الإيادي يقول (الإيادي، 2010، صفحة 98):

بعدما كان سرب قومي حينا لهم النخل كلها و البحار

وإذا كانت نسقية النخلة بكل ما ألحقناه من شعر لشعراء الجاهلية وصفات ألصقوها ونسبوها لها فهي ترمز إلى القوة والمنعة والثراء والفخر، وهذا نظرا لما تهبه وتقدمه، فهي مصدر خير وعطاء وهذا الذي لطالما تحدثنا فيه وعنه في نسقها، ولكن هي عند أقوام آخرين رمزا للتحقير والاستهزاء والمهانة عندما تفقد النخلة سماتها المعروفة في عرف وبيئة الجاهلي.

ويؤكد هذه النظرة (العالم، دس، صفحة 27) بأنه قد تراءى لإنسان الجاهلية صورة النخلة الحاوية التي لا ثمر لها على أنها رمز لهزيمة القوم وضعفهم، والثمر الرديء الفاسد على أنه رمز لضعتهم و ذلهم وبخلهم وبعدهم عن المروءة.

وأحسن مثال على ذلك شعر أوس بن الحجر الذي في معرض الحديث عن النخلة مبدأ الأمومة وكذلك في حديثه عن الظعن وعلاقته بالنخلة، وأيضا الأعشى الذي يصور النخل الخالي من الثمار؛ وإنما تبيين الدلالة العكسية التي يحملها النخل عندما يكون ثمره فاسد أو عقيم أو حتى خالي من الثمر.

تقول الخنساء تعرض بحميدة الذي أرادها زوجا له (الخنساء، 1896، صفحة 147):

يرى شرفا و مكرمة أتاها إذا غدى الجليس جريم تمر

وتمثلت النخيل للشاعر الجاهلي صورة شعر الفتيل المجعد الذي تهوى عليه الرماح كأنه عرجون نخلة بما فيها من الشماريخ فتكون بها صورة النخلة (عذق نخلة يابسة) وهي دلالة نسقية مهلكة لا خير فيها ولا رجاء يرجى من ورائها .

يقول المفضل العبدي في ذلك (البحتري، 2009، صفحة 149):

قتلنا الحارث الوضاح منهم فحر كأنه لمته العذوق

فتكون هنا صورة النخلة اليابسة صورة أو رمزا للموت والضعف، فهي هنا نسقا مضادا مختفيا وراء النخلة شجرة ورمز العطاء والخير.

وتمثلقتلى الأعداء عند عنترة بن شداد العبسي بأعجاز نخل في أرض كثيرة الحجارة يقول (العبسي، 1893، صفحة 47):

وطرحتهم فوق الصعيد كأنهم أعجاز نخل في حضيض المحجر

ونبقى مع القتلى و لكن مع أوس بن حجر حيث تمثلهم نجذوع النخل يقول (حجر، 1979، صفحة 30):

وقتلى كمثل جذوع النخيل تغشـــاهم مسبـــل منهمـــر

فعنترة و أوس بن حجر يحملان في طيات شعرهم صورة القتلى المشبهة بجذوع أو سيقان النخلة وما هذا التشبيه إلا إيحاء لما ترمز له النخلة من موت ونهاية للحياة. فيظهر من جديد النسق أو الدلالة النسقية معاكسة لأسطورتها ـ أي النخلة ـ وحتى حقيقتها وواقعها كشجرة مثمرة وخيرة.

ولا ننسى أيضا الحرق الذي سبق وتحدثنا عنه مرارا ولما يرمز له أيضا من موت وهلاك وحتى الجدب، فحرق النخلة ما هو إلا حرق لمجد وعزة وقوة القبيلة، ورمز لضعفها وانكسارها وحتى فقرها وهوانها. وقد سبق ذكره أيضا والاستشهاد ببيتين للأعشى.

7-خاتمة:

إن النخلة في رؤى الشاعر الجاهلي شكلت بكل ما تحمله الكلمة من معنى مضاد وعميق حقيقي ظاهرا وباطنا، نسقا تضمن أبعاد ودلالات ورموزا معاكسة لبعضها البعض فكانت رمزا للأمومة ،وكانت الذكورة سبة و عارا لها، و كانت رمزا للخصوبة، وكان الجدب موت لها، وكانت رمزا للقوة والمنعة ،فكان الضعف والذل تهديدا عليها، وكانت رمزا للعطاء والخير وكان الدمار والموت خوفا عليها، وقد تمثلت النخلة كمعادلا فنيا للمرأة والأنثى والشمس والناقة وحتى القبيلة والكريم، لما تحمله من معاني القوة والأمومة والخصوبة والحياة وما تخفيه من ذل وموت وهلاك ودمار إذا لزم الأمر لإخافة الأعداء ومواجهتهم بحرق نخيلهم ورداءة ثمارهم وجذوعهم اليابسة.

8- قائمة المصادر والمراجع:

أبو دؤاد الإيادي. (2010). الديوان (المجلد 1). سوريا: دار العصماء.

أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري. (2009). الحماسة (المجلد ط1). (محمد نبيل طريفي، المحرر) الجزائر: دار الأبحاث.

اسماعيل أحمد العالم. (دس). الشعر العربي (المجلد دط). القاهرة: هبة النيل.

الخنساء. (1896). أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء (المجلد دط). بيروت: المطبعة الكاثوليكية.

المتلمس الضبعي. (1970). الديوان (المجلد دط). القاهرة: المخطوطات العربية.

المفضل الضبي. (دس). المفضليات (المجلد 6). القاهرة: دار المعارف.

امرؤ القيس. (2004). الديوان (المجلد ط2). (عبد الرحمن المصطاوي، المحرر) بيروت، دار المعرفة.

اوس بن حجر. (1979). الديوان (المجلد ط1). (محمد يوسف نجم، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

حسين السماهيجي، و آخرون. (2003). عبد الله الغذامي و الممارسة النقدية و الثقافية (المجلد 1). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات.

زكريا بن محمد القزويني. (1892). عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (المجلد دط). بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.

زهير بن أبي سلمى. (1988). الديوان. لبنان: دار الكتب العلمية.

سليمان محمد سليمان. (2005). المحاكاة في الشعر الجاهلي بين التقليد و الإبداع (المجلد 1). الإسكندرية: دار الوفاء للطباعة و النشر.

طرفة بن العبد. (2000). الديوان. لبنان: المؤسسة العربية للدراسات و النشر.

عبد الله الغذامي. (2005). النقد الثقافي(قراءة في الأنساق الثقافية العربية). المغرب: المركز الثقافي العربي.

عبيد بن الأبرص. (1994). الديوان (المجلد 1). بيروت: دار الكتاب العربي.

علقمة الفحل. (1935). الديوان (المجلد 1). القاهرة: المطبعة المحمودية.

عمر بن عبد العزيز السيف. (2009). بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية (المجلد ط1). بيروت: مؤسسة الإنتشار العربي.

عنترة بن شداد العبسي. (1893). الديوان (المجلد 4). بيروت: مطبعة الآداب.

فراس السواح. (2001). الأسطورة و المعنى(دراسات في الميثيولوجيا والديانات الشرقية). سوريا: دار علاء الدين.

لبيد بن ربيعة. (1993). الديوان (المجلد ط1). (حنى نصر الحتي، المحرر) بيروت: دار الكتاب الغربي.

محمد بن لافي اللويش. (2010). جدل الجمالي و الفكري(قراءة في الأنساق المضمرة عند الغذامي). لبنان: مؤسسة الانتشار العربي.

محمد عجينة. (1994). موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية و دلالاتها (المجلد 1). بيروت: دار الفارابي.

مصطفى ناصف. (1981). قراءة ثانية لشعرنا القديم (المجلد ط2). بيروت: دار الأندلس للطباعة و النشر.

ميمون بن قيس الأعشى. (دس). الديوان (المجلد دط). (محمد حسن، المترجمون) الاسكندرية: مكتبة الآداب.

يوسف عليمات. (2009). النسق الثقافي(قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم). الأردن: عالم الكتب الحديث.